السّيرةُ النّبويّة للبراعم

(٨)

تَاجِرٌ وَرَاعِي غَنَم!!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

obeikandl.com

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

obeikandl.com

« وَأَنَا كُنْتُ أَرْعَىٰ الغَنَمَ »!!

وَقَدْ يَطْرَحُ أَحَدُكُمْ يَا أَيُّها الأَحِبَّةُ البَرَاعِمُ سُؤَالاً : وَلماذَا رَعَىٰ الغَنَم ؟

نَسْتَلْهِمُ الجَوابَ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الطَّاهِرَةِ ، حَيْثُ نَتَبَيَّنُ : أَنَّ تلك المِهْنَةَ هي إِحْدَىٰ الأَعْمَالِ الَّتي مارسها غَالِبِيَّةُ أَنْبِيَاءِ اللهِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ ، مِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُ المُصْطَفَىٰ ﷺ : « مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلا وَقَدْ رَعَىٰ الغَنَمَ » .

قِيْلَ : وَأَنْتَ يَا رَسُولَ الله ؟!

قَالَ : « نَعَمْ ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَىٰ قَرَارِيْطَ لأَهْلِ مَكَّةَ » .

وَبالتَّالِي ، فَرَعْيُ الغَنَم يُعَوِّدُ الإنسَانَ عَلَىٰ طَبِيْعَةِ الوَقَارِ ، والسَّكِيْنَةِ ، وَيُرَوِّضُ الإنسَانَ علىٰ الصَّبْرِ ، والتَّحَمُّلِ ، مِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُ المُصْطَفَىٰ ﷺ : « الفَخْرُ ، والخُيلاء في أَهْلِ الإبل ، وَالسَّكِيْنَةُ وَالوَقَارُ في أَهْلِ الغَنَمِ » .

ثُمَّ مَنْ كَانَ يَدْرِي وَقْتَئِذٍ : أَنَّ ذَلِكُمُ اليَافِعُ ﷺ سَيَتَدَرَّبُ علىٰ رَعْي الغَنَمِ ، لِيُصْبِحَ فيما بَعْدُ رَاعِياً لِلأُمَمِ ؟!

* * *

مِنَ الرَّعْيِ إِلَى التِّجَارَةِ

وَذاتَ لَيْلَةٍ رَأَىٰ ذَلِكُمُ اليَافِعُ ـ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ ـ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ يُجَهِّزُ رَاحِلَتَهُ ، وَيَتَهَيَّأُ لِلسَّفَرِ ، فَسَأَلَهُ : إِلى أَيْنَ يَا عَمُّ ؟!

قَالَ : إِلىٰ بلاد الشَّامِ ، قَاصِدَاً تجارةً هناك عَسَىٰ أَنْ نُكَلَّلَ بالنَّجَاحِ وَالأَرْبَاحِ!

وَتَعَلَّقَ الفَتَىٰ بِعَمِّهِ وَطَلبَ مِنْهُ أَنْ يَصْحَبَهُ مَعَهُ ، وَذلِكَ بِقَصْدِ السِّيَاحَةِ ، وَتَعَلُّمِ أُمُوْرِ التِّجَارَةِ .

وتردَّدَ أَبُو طَالِبٍ مِراراً ، وَذَلِكَ مِنْ شدَّةِ خَوْفِهِ

عَلَيْهِ ، وَخَاصةً مِنْ كَثْرَةِ مَا أَوْصَاهُ بِهِ وَالِدُهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ قَبْلَ وَفَاتِهِ .

وَلِكَثْرَةِ إِلْحَاحِهِ عَلَيْهِ وَافَقَ عَلَىٰ اصْطِحَابِهِ ، لَـٰكِنَّهُ قَالَ في نَفْسِهِ : وَاللهِ! لَنْ أَدَعَهُ بَعِيْداً عنِّي أَبَداً ، وَيَعْلمُ الله مَدَىٰ خَوْفي عَلَيْهِ مِنَ اليَهُود!

وَتَذكَّر اليَافِعُ ـ صَلَوَاتُ الله وسَلامُهُ عَلَيْهِ ـ حِكَايَةَ أَبِيْهِ عَبْدِ اللهِ حِيْنَ خَرَجَ إِلَىٰ بِلادِ الشَّامِ في تِجَارَةٍ ، وَكَيْفَ مَرِضَ أَثْنَاءَ عَوْدَتِهِ ، وَدُفِنَ في يَثْرِبَ عِنْدَ أَخْوَالِهِ .

وَعِنْدَ ذَلِكَ سَالَتْ دُمُوْعُهُ عَلَىٰ خَدَّيْهِ ، وَتَمْتَمَ قَائلاً : لَقَدْ مَاتَ أَبِي في تِلْكَ الرِّحْلَةِ الشَّاقَّةِ ، فَلِمَاذا لا أَذْهَبُ مَع عَمِّي لأَتَعَرَّفَ عَلَىٰ مَرَارَةِ مَا عَانَاهُ وَالِدِي ، وعلىٰ الطَّرِيْقِ الصَّعْبِ الَّذِي يَسْلُكُهُ التُّجَّارُ عَادَةً ؟

وَكَمْ كَانَتْ فَرْحَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَبِيْرَةً حِيْنَما هَمَسَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ في أُذُنِهِ قَائِلاً : غَدَاً سَنَتَوَجَّهُ إلىٰ بِلاد الشَّام يا بنيَّ ؟!

* * *

obeikandl.com

مَعَ الرَّاهِبِ بَحِيْرَىٰ

وَفي صَبِيْحَةِ اليَوْمِ التَّالي ، سَارَتِ القَافِلَةُ التِّجَارِيَّةُ مِنْ مَكَّةَ مُتَوَجِّهَةً نَحْوَ بِلادِ الشَّام .

وَمِمَّا أَثَارَ انْتِبَاهَ النَّاسِ شِدَّةُ حِرْصِ أبي طَالِبٍ عَلَىٰ ابْنِ أَخِيْهِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وَلمَّا وَصَلَتِ القَافِلَةُ إلىٰ (بُصْرَى الشَّام) قُرْبَ دَرْعا ؛ جَلَسَ النَّاسُ تَحْتَ الأشْجَارِ ، وَذَلِكَ بِهَدَفِ الاسْتِرَاحَةِ ، وَالتَّزَوُّدِ بِالطَّعَامِ ، وَمِيَاهِ الشُّرْبِ ، وَمَا إلىٰ هُنَالِكَ .

الْتَفَتَ الشَّابُّ اليَافِعُ ﷺ إلىٰ عَمِّهِ وَسَأَلَهُ :

مَاذَا يُوْجَدُ دَاخِلَ تِلْكَ الصَّوْمَعَةِ المَبْنِيَّةِ عَلَىٰ تِلْكُمُ التَّلَّةِ ؟

أَجَابَ العَمُّ : إِنَّ في تِلْكَ الصَّوْمَعَةِ رَاهِباً يُدْعَىٰ : (بَحِيْرَىٰ) ، وَهُوَ مَشْهُوْرٌ بِعُلُومِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ ، وَبِخَاصَّةِ التَّوْرَاةُ ، وَالإِنْجِيْلُ .

وبينما كَانَ الْحَدِيْثُ يَدُوْرُ بَيْنَ الشَّابِّ وَبَيْنَ عَمِّهِ ؛ كَانَ الرَّاهِبُ (بَحِيْرَىٰ) يَنْظُرُ مِنْ نَافِذَةٍ صَغِيْرَةٍ إِلىٰ القَادِمِيْنَ مِنْ مَكَّةَ مَعَ القَافِلَةِ التِّجَارِيَّةِ ، وَيُدَقِّقُ النَّظَرَ في أَغْصَانِ شَجَرَةٍ تَنْحَنِي ـ وَكَأَنَّها تُسَلِّم ـ بِكُلِّ لُطْفٍ عَلَىٰ الشَّابِّ اليَافِعِ!

إِلىٰ دَرَجَةِ أَنَّ (بَحِيْرَىٰ) لم يُعد يَتَحَمَّلُ مَا يَرَىٰ ، فَخَرج من صومعته ، واقترب من الشَّابِّ

والرَّجل الواقفِ إلىٰ جِوَارِهِ ، وَسَأَلَ : مِنْ أَيْنَ أَنْتم ؟

قال أبو طالب : نَحْنُ تُجَّار مِنْ مَكَّةَ في بِلادِ الحِجَازِ .

وراح (بَحِيْرَىٰ) يُحَدِّقُ في وَجْهِ اليَافِعِ ـ صَلَواتُ اللهِ وسلامُهُ عَلَيْهِ ـ ثُمَّ يَدُورُ حَوْلَهُ وَيَهُزُّ بِرَأْسِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ لِعَمِّهِ : إِنَّ كُلَّ الإشَارَاتِ والدَّلائِلِ الَّتي قَرَأْتُهَا في التوراةِ وَالإنجيل عن نَبِيّ آخِرِ الزَّمَانِ تَنْطَبِقُ عَلَىٰ هَذَا الشَّابِّ .

ثُمَّ مَا كَانَ مِنَ الرَّاهِبِ (بَحِيْرَىٰ) إلا أنْ دَعَا التُّجَّارَ المَكِّيِّين إلى وَجْبَةِ طَعَامٍ .

وَلمَّا حَضَروا ؛ رَاحَ (بحيرىٰ) يَسْأل ذَاكَ الشَّابَّ اليَافِعَ عَنْ كلِّ مَا يَدُورُ حَوْلَهُ .

* * *

إِنَّ لَهُ شَأْناً عَظِيْمَاً

وَبَعْدَ اسْتِفْسَارَاتٍ كَثِيْرَةٍ ، تَهَلَّلَ وَجْهُ الرَّاهِبِ وَكَأَنَّهُ قَدِ انْتَصَرَ ، أَوْ حَقَّقَ أَمْراً ما . فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : إِنْ صَدَقَنِي الحَدْثُ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ هَذَا الغُلامُ نَبِيَّ آخِرِ الزَّمانِ ، وَلَئِنْ كُنْتُ حَيَّاً عِنْدَ بِعْثَتِهِ ؛ لأَكُونَنَّ لَهُ نَصيراً!!

ثُمَّ الْتَفَتَ الرَّاهِبُ إِلىٰ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ، وَسَأَلَهُ : مَا هَذَا الغُلامُ مِنْكَ ؟

قَالَ : إِنَّه ابْنِي .

فَقَالَ الرَّاهِبُ : مَا هُوَ بِابْنِكَ ، وَمَا يَنْبغي لِهَذَا الغُلامِ أَنْ يَكُوْنَ أَبُوْهُ حَيَّاً .

فَهَزَّ أَبُو طَالِبٍ رَأْسَهُ ، وَقَالَ : فَإِنَّهُ ابْنُ أخي عَبْدِ اللهِ .

فَقَالَ الرَّاهِبُ : وَمَا فَعَلَ أَبُوْهُ ؟

أَجَابَ أَبُو طَالِبٍ : مَاتَ وَأُمُّهُ حُبْلَىٰ بِهِ .

قَالَ : صَدَقْتَ فَارْجِعْ بِابْنِ أَخِيْكَ إِلىٰ بَلَدِهِ ، وَاحْذَرْ عَلَيْهِ يَهُودَ ، فَوَاللهِ! لَئِنْ رَأَوْهُ وَعَرَفُوا مِنْهُ مَا عَرَفْتُ لَيَبْغُنَّهُ شَرًّا ، فإنَّه كَائِنٌ لابْنِ أَخِيْكَ هَذَا شَأْنٌ عَظِيْمٌ ، فَأَسْرِعْ بِهِ إِلىٰ بِلادِهِ!!

* * *

مَا أَجْمَلَ حِلْفَ الفُضُوْلِ!

وَزَادَتْ مَخَاوِفُ أَبي طالِبٍ علىٰ ابْنِ أَخِيْهِ ، وَخَاصَّةً عِنْدَما سَمِعَ مِنَ الرَّاهِبِ (بحيرى) عن اسْتِهْدَافِ اليَهُودِ لحياته و...!!

فَمَا كَانَ مِنْهُ إلا أَنْ قَطَعَ رِحْلَتَهُ ، وَعَادَ بِابْنِ أَخِيْهِ إلىٰ مَكَّة.

وَهُنَاكَ كَانَتِ النَّشْأَةُ الطَّاهِرَةُ لِلشَّابِّ اليَافِعِ ، إضَافَةً إلىٰ رِعَايَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ لَهُ ، بحيث لَمْ يَشْرَبْ خَمْرًا ، وَلَمْ يَسْجُدْ لِصَنَمٍ ، وَلَمْ يَقْتَرِفِ الآثَامَ والذُّنُوبَ ، وَكَأَنَّ الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ

يَقُوْلُ فِيْهِ : ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾[1] أَوْ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[2] .

وَشَاءَ الله تَعَالَىٰ لِذَلِكُمُ الشَّابِّ ـ صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عليه ـ حُضُورَ حِلْف الفُضُوْلِ ، حَيْثُ تَنَادَىٰ كِبَارُ قُرَيشٍ لاجْتِمَاعٍ يَهْدِفُ إلى نُصْرَةِ المَظْلُومِيْنَ .

وَكَانَ ذَلِكَ في دَارَ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ ، وَبقي ذَلِكُمُ الاجْتِمَاعُ الهَادِفُ في ذِهْنِ الشَّابِّ حتَّى بَعْدَ الرِّسَالَةِ ، حَيْثُ كَانَ ﷺ يَقُولُ :

« لَقَدْ شَهِدْتُ في دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفاً مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ ، وَلَوْ دُعِيْتُ بِهِ في الإسْلامِ لأَجَبْتُ » .

---

(١) سورة طه : ٤١ .

(٢) سورة الطور : ٤٨ .

وَلَيْتَ الأُمَّةَ الإِسْلامِيَّةَ يَا أَحِبَّتي البَرَاعِمَ تَتَداعَىٰ لِحِلْفٍ كَذَاكَ الحِلْفِ الَّذِي شَهِدَهُ الرَّسُولُ ﷺ في الجَاهِلِيَّةِ ، وَذَلِكَ كُلَّمَا أُصِيْبَ بَلَدٌ مِنْ بِلادِ المُسْلِمِيْنَ بِمُصِيْبَةٍ أَوْ خَطَرٍ أَوْ جَائِحَةٍ مَا .

عَسَىٰ أَنْ يَتَعَاوَنَ الْجَمِيْعُ عَلَىٰ مَا يُحِبُّ الله وَيَرْضَىٰ ، وَعَسَىٰ أَنْ يَكُوْنَ المُسْلِمُونَ جَسَداً وَاحِداً ، كَمَا أَخْبَر عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام : « مَثَلُ المُؤْمِنِيْنَ في تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ الوَاحِدِ ، إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّىٰ » .

وَآخِرُ دَعْوانا أنِ الحمدُ للهِ رَبِّ العَالمين

* * *